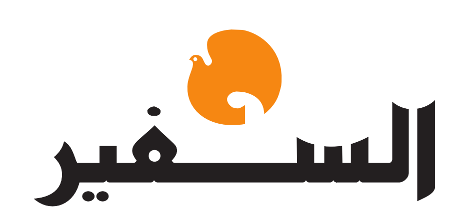
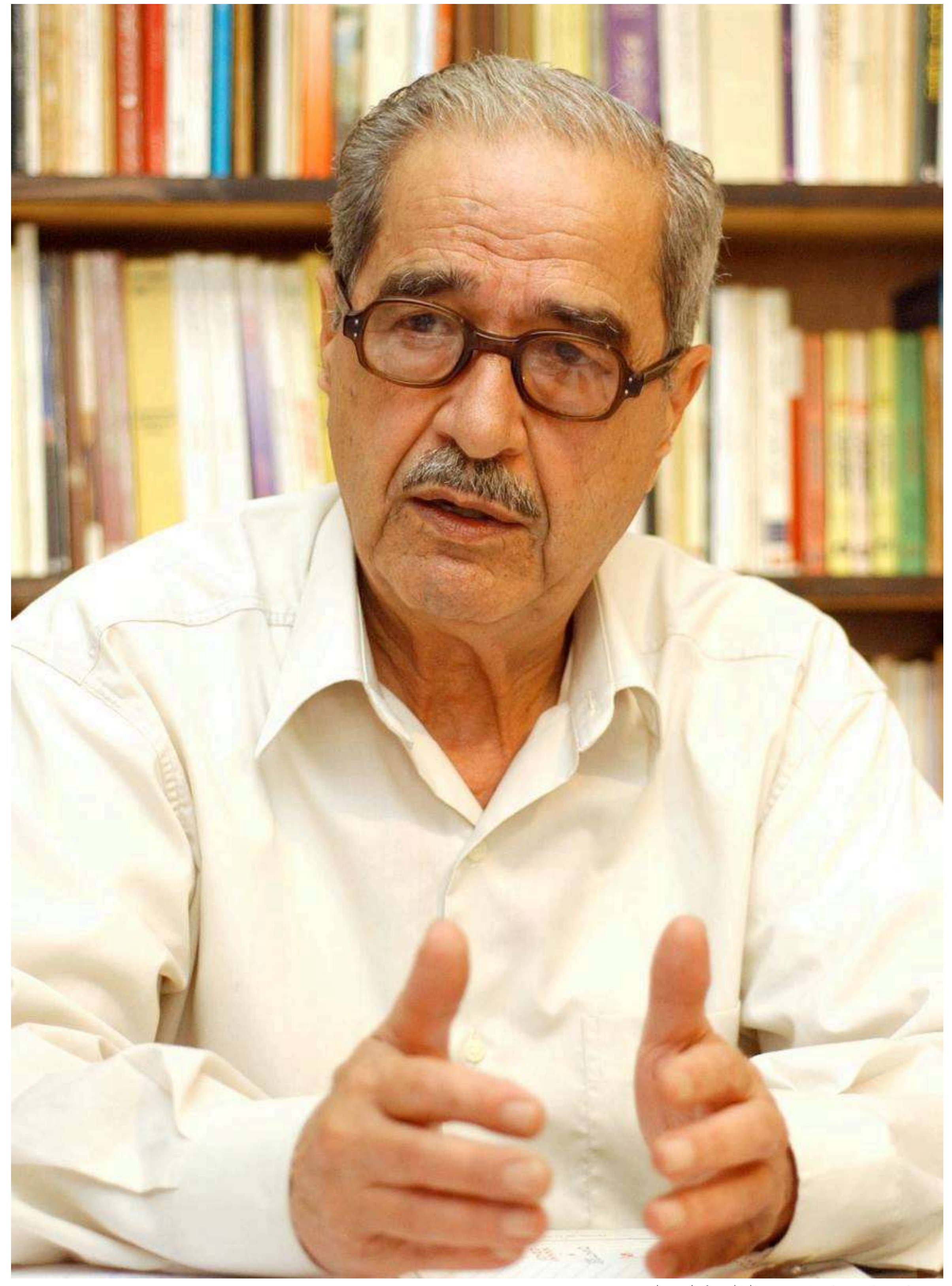


قال له روب غريبه »قرود الأدب في كل مكان« جواد صيداوي: الكتابة جهد أما الإلهام فلا أؤمن به


صيداوي الاستفادة لا تعني التقليد (علي علوش

المؤلف: جابر عناية

التاريخ: 01-06-2004
رقم العدد:9806

»الامثال العامية في جبل عامل« هو العمل الادبي الجديد للروائي اللبناني جواد صيداوي. لصيداوي سبع روايات ومجموعتان قصصيتان، وثلاثية في السيرة الذاتية الروائية »أجنحة التيه«. عن عمله الجديد، وهواجس روائية اخرى حاورته »السفير« وكان هذا الحديث. ÷ »الامثال العامية في جبل عامل« للسيد جعفر الامين، آخر عمل ادبي ساهمت في إعداده للنشر. ما الذي جذبك الى الاهتمام بهذا الاثر »التراثي«؟ { ما جذبني الى ذلك أمران، اولهما معرفتي الشخصية بمؤلفه المرحوم جعفر الامين (19811908)، وما كان يتصف به دماثة الخلق، وصدق الوداد، وحدة الذكاء، وسرعة البديهة، فضلا عن شاعريته وحسه الادبي المرهف. والامر الثاني هو ان هذا الكتاب »الامثال العامية في جبل عامل«، الذي تفضل نجل الاديب الراحل، الاستاذ اكرم الامين، بوضع مخطوطته بين يدي، يعكس ألوانا من الحياة الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والاقتصادية، في جبل عامل، قلب الجنوب اللبناني، في القرنين التاسع عشر والعشرين. وما يضفي أهمية لافتة على الكتاب ليس اشتماله على عدد كبير من الامثال الشعبية فحسب، وانما ايضا تفسير الكاتب لمجموعة من تلك الامثال بأسلوب مباشر تغلب السخرية والفكاهة عليه، ويدل، في الوقت عينه، على دقة الملاحظة، والمشاركة العطوف لبسطاء الناس في مشاعرهم وهموم حياتهم اليومية. وإذا كان كتاب جعفر الامين، في ما احتواه من أمثال وحكايات، مقصورا على جبل عامل، وعلى عمقه القروي والزراعي تحديداً، فإن دلالات غالبية الامثال المختارة دلالات إنسانية عامة نجدها في أمثال الشعوب الاخرى، لا تختلف عنها إلا بالصياغة والالفاظ المحلية البحتة. فعندما يقول الفلاح الجنوبي »ألف عام بالكبر ولا يوم تحت الحجر« نجد المعنى ذاته في قول الشاعر الفرنسي موليير، في احدى منظوماته التعليمية: "Plut™t souffrir que mourir" »من الافضل ان نعاني (من الشيخوخة وعليها)، من ان نموت باكراً«. فالامثال الشعبية تلخص اذن فلسفة الجماهير الواسعة في كلمات موجزة، وهي مصدر مهم للمؤرخ الاجتماعي والاخلاقي. ثم ان الاهتمام بالتراث، اياً كانت مضامينه وأشكاله، ومهما بعد زمانه أو قرب، هي عودة الى الجذور لإضاءة دروب المستقبل، وهذا ما عناه الشاعر الاوزبكي رسول حمزاتوف في قوله: »من يطلق النار على ماضيه من المسدس، سوف يطلق المستقبل النار عليه من المدفع«. وقد آثرت، لدى مراجعتي الكتاب وإعداده للنشر ان أبقي على صيغة الامثال كما دوّنها الكاتب، وكذلك على العبارات والالفاظ الجنسية مثلما وردت، لكي لا أرتكب الخطأ،الذي ارتكبه من عملوا على »تهذيب« كتاب ألف ليلة وليلة و»تنقيحه«. الجهد أولاً ÷ بالعودة الى نشاطك الادبي الرئيس: الرواية. مجموعتان قصصيتان، سبع روايات، ثلاثية في السيرة الذاتية الروائية

»أجنحة التيه« هل للخيال دور في رواياتك ام هي مجرد توثيق حرفي للواقع؟ { للمخيلة دور رئيسي في كل عمل إبداعي، بل لا وجود لعمل إبداعي، حقيقي، بدون ذلك الدور. واذا كانت المخيلة تساعد المبدع على استنباط صور لا وجود لها في الواقع العادي، إلا انها، في شتى تجلياتها، بنت الواقع ذاته. فلو أخذنا رواية »المسخ« لفرانز كافكا (1883 1924) حيث يبلغ الخيال فيها حد الاسطورة، »حين آفاق غريغور سامسا، ذات صباح، من أحلامه، وجد نفسه وقد تحوّل، في فراشه، الى حشرة ضخمة«، ثم نقرأ تفاصيل حياة الكاتب والضغوط التي كان يتعرض لها سواء في عمله او في علاقته بذويه. نجد ان علاقة قصة »المسخ« بسيرة حياته ظاهرة للعيان. ولكن كافكا نجح، بفضل عبقريته، في المزج بين معطيات خياله الخلاق، وبين المعطيات الحقيقية للواقع، الذي يعيش في إطاره. أما التوثيق الحرفي للواقع فهو عمل المؤرخ. دور الخيال في أعمالي الروائية دور بارز خصوصا في الروايات الثلاث: العودة على متن الرحيل، مطاردة، فساتين هندمة. فبعد وضع المخطط العام، الاولي، لموضوع روائي أثار عندي الرغبة بالكتابة، أنتقل الى التوثيق الكتابي، أو السماعي اذا كان الموضوع يتعلق بواقع اجتماعي أعرفه، ثم أبدأ، بعد فترة الاختمار، الى الكتابة الذهنية، اذا صح التعبير، أفكر بالاحداث، أحاور الاشخاص، أتخيل مجرى حادثة معينة لم أستطع جمع معلومات واضحة عنها، فأضع لها عدة سيناريوهات أختار منها، عند الكتابة، الاكثر انسجاما أو تآلفا مع السياق، وقد تستمر هذه الفترة من التفكير، والتأمل، والتخيل، عدة اشهر، واحيانا عدة سنوات. وعندما أشعر بأن تكوّن »الجنين« قد اكتمل، أتفرغ للكتابة. والكتابة جهد وسهر وتركيز ذهني، أما الالهام فلست من المؤمنين به. ÷ لقد عشت فترة طويلة في الغرب، واطلعت، حتما، على تقنيات الرواية الغربية، الحديثة والقديمة، هل أفدت شيئا من ذلك ام انك تفضل الاكتفاء باستنطاق الواقع المحلي؟ { أعرف تقنيات الرواية الغربية، قبل إقامتي الطويلة في فرنسا. أول رواية غربية قرأتها هي رواية »البؤساء« لفيكتور هوغو. كنت في السادسة عشرة، في نهاية المرحلة التكميلية، قرأتها بالفرنسية، على ضوء السراج، مستعينا، في كل صفحة، عدة مرات بقاموس »بيلو « الفرنسي العربي. لذلك كان كل جزء من أجزائها الاربعة يستغرق شهرين أو ثلاثة من القراءة المضنية. لا شك في انني استفدت كثيراً، على الصعيد الادبي عموماً، وعلى صعيد الرواية في شكل خاص، خلال إقامتي في فرنسا، وفضلا عن القراءة، كان هناك علاقات شخصية مع عدد من كبار الادباء والمفكرين والباحثين الفرنسيين: آلان روب غرييه رائد الرواية الحديثة، لويس اراغون، جاك برك، مكسيم رودنسون... وسواهم. وكلما كان برنار بيفو صاحب البرنامج الثقافي الشهير

»آبوستروف« يستضيف، في حلقات برنامجه، كاتباً روائياً او اكثر، كنت أحرص على وجودي في الاستديو مع المستمعين. وتجدر الاشارة، في سياق الاجابة على سؤالك، الى انه لا وجود لتقنيات ثابتة، او »مقدسة« سواء في الرواية او في أي عمل إبداعي آخر، بل هناك تجديد وتطوير مستمران، وقد تختلف التقنيات الفنية بين بلد وآخر. من كتابنا المعاصرين من استعان بتقنيات السرد الروائي في ألف ليلة وليلة، مثلا، ونجح في ذلك. ثم ان الاستفادة من الآخرين وتجاربهم الابداعية، لا تعني التقليد الاعمى لتلك التجارب.

للكاتب الفرنسي آلان روب غرييه رواية من جملة واحدة. لا فواصل، ولا نقاط، ولا فقرات فحاول أحد كتابنا مجاراته في كتابة رواية عربية، فكانت النتيجة كارثية. وقد حدثت الكاتب الفرنسي عن صاحبنا. فقال: »لا أستغرب ذلك، قرود الادب في كل مكان«. ينبغي لنا ان نستثمر »الثروات« الموجودة لدينا، وبما ان الثروات، التي نملكها، تبدو لنا مألوفة جدا، فإننا لا ندرك قيمتها الحقيقية، بل نجري وراء »ثروات« اكثر بريقا قد لا تترك بين أيدينا سوى ظلالها. لدى قيامي بترجمة رواية »الخيميائي« للكاتب البرازيلي باولو كويلو، خلتني أعيش في أجواء ألف ليلة وليلة. ذلك ان »الحلم« الذي طرأ على راعٍ اسباني شاب، غير مرة، وسعى الشاب الى »تحقيقه«، في رواية كويلو، نراه، بنصه وروحه تقريبا، في ألف ليلة وليلة. وهذه ظاهرة مشروعة ومألوفة في عالم الادب. لذلك أرى، مع الاستفادة من الآخرين والانفتاح على سائر الحضارات، ان نسعى الى اكتشاف المخبوء من كنوزنا.

واستنطاق الواقع المحلي، اذا أحسناه وغصنا بعيدا في أعماقه المظلمة، لا يغير الرواية إطلاقا لان الحقائق الانسانية الاصيلة هي هي عند البشر جميعا، فالحب بين روميو وجولييت، في رائعة شكسبير، الذي قضت على طرفيه كليهما المشاحنات العائلية، هو الحب ذاته بين الفتاة اللبنانية وأستاذها الافريقي، الذي قضى على احد طرفيه اختلاف لون البشرة، في احدى رواياتي، وعالم نجيب محفوظ الروائي، الخصب والغني، يكاد يقتصر على مدينة القاهرة، باستثناء »ميرامار«، التي تجري أحداثها في الاسكندرية. قراءات ÷ ما هي قراءاتك المفضلة؟ وما مدى تأثرك ببعض الروائيين سواء اكانوا عربا ام اجانب؟ {

كان جيلنا، في اربعينيات القرن العشرين، جيل جرجي زيدان، وجبران خليل جبران، وتوفيق يوسف عواد، وتوفيق الحكيم... نلتهم كتبهم ونبكي مع »سلمى كرامة« في الأجنحة المتكسرة لجبران، ونحلم في أجواء »دمعة وابتسامة«، و»نحشّش« مع »فدائيي« الحسن الصباح في »صلاح الدين ومكائد الحشاشين« لزيدان، ونضحك لسذاجة الفلاحين المعدمين في »يوميات نائب في الارياف« لتوفيق الحكيم. كان ذلك في المرحلة الابتدائية، في المرحلة التكميلية، أو المتوسطة، غدت مطالعاتنا أكثر تنوعاً وأكثر غنى.

التأثير الادبي، الحقيقي، الاول، جاءني من كتاب »البؤساء«، رغم ما كابدته من عناء في قراءته، كما ذكرت سابقا. لكم أوجعتني مأساة »فونتين«، وبأي شغف قلق تابعت مصير ابنتها »كوزيت«، وكم هزّني نبل »جان فالجان«، الفار من سجنه المؤبد، وتفانيه في فعل الخير. ولم يقتصر تأثير الرواية على نزاعي الادبي المبكر فحسب، وانما، ايضا، على نزاعي الفكري، اذ قربني من الحزب الشيوعي لان شعاراته تدعو الى العدالة، والمساواة، ومقاومة الظلم... وبدأت بالتعرف على اعمال نجيب محفوظ في مستهل خمسينيات القرن الماضي، وكنت شديد التأثر بها، خصوصا ثلاثية »بين القصرين« حيث وجدت في شخصية احمد عبد الجواد صورة لأبي ولكل أب »سلطوي« في الاسرة العربية. وأغرتني روايات نجيب محفوظ بكتابة الرواية، الى جانب الشعر، وكانت محاولتي الروائية الاولى في أواسط الستينيات، ولكنني لم أجرؤ على نشرها إلا بعد عقدين، وهي »العودة على متن الرحيل«. واذا كان قيامي بإدارة ثانوية النبطية الرسمية، في تلك الفترة، قد حال بيني وبين مواكبة حمى التجديد الادبي، في الستينيات، عن كثب، إلا انني اكتشفت، بفضل »دار اليقظة العربية بدمشق«، عالم الرواية الروسية المذهل، فانكببت على قراءة روايات دوستويفسكي، وغوركي، وتورجنيف، الى جانب أقطاب الرواية الفرنسية: ستندال، وبلزاك، وفلوبير، موباسان. وغالبا ما أعيد قراءة آثار هؤلاء الكتاب الكبار بمتعة متجددة. لقد استفدت من كل ما قرأت، وما زلت أستفيد مما أقرأ، ولكنني لم أتقيد، في رواياتي، بنهج روائي معين، أو على غرار هذا الكاتب أو ذاك، وان كنت أميل الى واقعية الادباء الروس، الذين ذكرتهم، والى نزعتهم الانسانية ونقد الواقع الاجتماعي. ولم أصب بعقدة »سليمان رشدي« سواء بالتعرض للموضوعات الدينية على نحو مصطنع ومتعسف، او بتناول الموضوعات الجنسية على نحو مبالغ فيه الى حد الابتذال، استجداء لغضب السلطة الدينية أو السلطة المدنية. ÷ الى أي حد تماهت الرواية مع الحرب اللبنانية، ومن هم الكتّاب، الاكثر نجاحاً، في تصويرها؟ { ثمة من كتبوا عن الحرب إبان احتدامها، وثمة من كتبوا عنها بعد توقفها، أرى روايات الفريق الثاني أكثر نجاحاً، لأنه ينبغي للكتابة الروائية ألا تكون محمولة على حرارة الانفعال، وان كان الانفعال عميقا وصادقا، وإنما ينبغي ان ينجح الانفعال في إثارة، أو انبعات الصور المختارة، المختزنة أو الراقدة في الاعماق، وهذه الصور المختارة تعد، وحدها، الارشيف الحقيقي، الذي »يبطن« الكاتب به روايته، وليس الوثائق، أو الاحداث العادية، التي نجمعها من الخارج. ومثل هذا الامر لا يتحقق إلا بعد ان »تنضج« عناصر الموضوع جيدا في وجدان الكاتب. فأرنست همنغواي، مثلا، لم يكتب رواية »وداعا للسلاح« عن الحرب العالمية الاولى إلا في سنة 1929، أي بعد مرور

احدى عشرة سنة، على انتهاء الحرب المذكورة. وكتب تولستوي ملحمته الروائية »الحرب والسلام« بين العامين 1865 و1869، أي بعد قرابة نصف قرن على غزو نابليون لروسيا، لا شك في ان هناك من ينجحون في تناول موضوع من الموضوعات وهو »ساخن«، ولكن هؤلاء قليلون جدا. أما من نجح في تصوير الحرب روائيا، أقر بأنني غير مؤهل للاجابة على هذا السؤال، اولا، لأنني لم أعايش الحرب إلا في سنتها الاولى، وثانيا، لم يتسن لي ان أقرأ جميع ما صدر من روايات عن هذا الموضوع. لذلك أحيل القارئ على الدراسة القيمة »النظرة الروائية الى الحرب اللبنانية، 19951975« للباحثة والناقدة السيدة رفيف رضا صيداوي.


البحث في الأرشيف الكامل لجريدة "السفير"

الكلمات الدالة


لبنان | القصة العربية | صيداوي جواد | المقابلات | الامثال والحكم